الشّخصية الرّمزية للأمير عبد القادر
من خلال القصيدة الشّعبيّة

أ/بن لباد سالم

جامعة وهران

تعتبر شخصية الأمير عبد القادر، من أهم الشخصيات التي أثرت بشكل مباشر على الفكر الشعبي عامّة، والشعر الشعبي خاصّة، حيث نجد هذا التأثّر واضحا، فمن خلال دراستنا لبعض القصائد الشعبية، سواء كانت هذه القصائد في فترة زمنية قديمة أو في زمن ما بعد الاستقلال.

فالشعر الشعبي هو الذاكرة الشعبية التي يتعرّف الباحث من خلالها على أهمّ محطّات المجتمع الشعبي ومقوّماته الوطنية، كما نجد ذلك الامتداد التاريخي العميق في الروح الشعبية، من خلال النظم التي عايشت الوضع السياسي والاجتماعي والثقافي، ويمكن القول إنّ شخصية الأمير عبد القادر، هي مادّة خصبة في مجال البحث، لما تركته هذه الشخصية من مواقف تأثّر بها الفكر الشعبي، كما له الفضل في تأسيس الدولة الجزائرية، ليصبح بذلك **الأمير عبد القادر** البطل السياسي والرمز البطولي.

لقد اقترن اسم **الأمير عبد القادر** بتلك المعارك الكبرى الخالدة الراسخة في الذاكرة الشعبية الجزائرية، والتي كان لمواقفه وبسالته الأثر الإيجابي في النفوس الشعبية من حيث تقبّلها والتأثّر بها، كما اقترن بذلك التنظيم السياسي والإداري والعسكري، الّذي تأسّس أيضا بتلك الحركة الدينية الصوفية الفكرية والأدبية، التي ظلّت آثارها بارزة في التاريخ الثقافي والفكري والديني الجزائري والعربي والإسلامي...[1].

وقد اقترن اسم **الأمير عبد القادر** أيضا، بتلك النزعة الإنسانية والأخلاقية من حيث سعيه لتحقيق السلم، وفكّ النزاعات بين الأفراد داخل الجزائر وخارجها.

ويمكن القول إنّ لهذا الاقتران الفضل في بناء الشخصية الرمزية **للأمير عبد القادر**، وإسكانها في الذات الشعبية التي تأثّرت بها، ووضعت لها مكانا في قلوب الأفراد الشعبية العربية عامّة والجزائرية خاصّة. أمّا المادة الشعرية التي وظّفت شخصية **الأمير عبد القادر** فهي مادّة كبيرة وغزيرة، تعدّدت في الأغراض والأهداف، ولذلك حاولنا أن ندرس عيّنة منها

تكون قد تحدّثت أصلا عن الشخصية وما تحتويه من صور رمزية لشخصية **الأمير عبد القادر**، ووقفنا عند حدود حضور رمز البطل في الشعر الشعبي.

البعد الثّقافيّ الرّوحيّ:

يعتقد الشاعر الشّعبي أنّ الاحتلال الفرنسي هو غزو للإسلام، فالإسلام بالنسبة للشعب هو ذلك المقياس الذي يحدّد هوية الإنسان الجزائري، وبهذا تبنى الفكرة الوطنية من المزيج بين العقيدة الدّينية والرّوح الوطنية.

فنجد المجتمع الشّعبيّ يتبع أو يميل إلى الشّخصية التي تكون فيها صفات الشجاعة والبسالة إلى جانب الورع والتقوى.

وكان **الأمير عبد القادر** من الشّخصيات التي كان لها الدور الإيجابي في المقاومة، ويعود السبب في انتمائه الديني، والتربية التي شبّ عليها في حضن الزاوية، وكان الشّعب يرى فيه القائد الذي يكون الالتفاف حوله توطيد الصلة بينه وبين الدين الإسلامي.

يقول الشّاعر بن عبد اللّه:

قَصَـــــةْ بْـــــنُ مَحْـــــي الـــــدِّينْ يَـــــا الكُتَـــــابْ
أَثْأَمَـــــلْ فِيهَـــــا يَـــــا فْطِـــــينْ خَمَـــــمْ
وَلْـــــدْ القَيْطَنَـــــةْ هَاشْـــــمِي شْـــــرِيفْ الأَنْسَـــــابْ
عِلْـــــمْ وْحِكْمَـــــه وْالجَـــــاهْ وَالنْعَـــــايَمْ
حِـــــينْ كْبَـــــرْ مَحْـــــي الـــــدِّينْ شِـــــيخْ الأَعْـــــرَابْ
أَعْطَـــــاهْ السَّـــــرْ وْطَابْعَـــــهْ مْـــــزَمَمْ
نَصْـــــرُوهْ أَعْرَابْهَـــــا وْبَـــــايْعُوهْ الاَنْجَـــــابْ
قُضْـــــيَا وَمْفَاتَـــــا شْـــــيُوخْهَا وْعَـــــالمَ
نَاصَـــــرْ الـــــدِّينْ أَحْيَـــــاهْ يَقْهَـــــرْ الكَـــــافْرِينْ
تْوَكَـــــلْ عْلَـــــى اللَـــــهْ رَبْنَـــــا نُـــــوَابْ (2)

يحاول الشّاعر بن عبد اللّه، أن يقدم لنا **الأمير عبد القادر** بخطاب رمزيّ إخباريّ، يدعو فيه القارئ إلى التأمّل في شخصية الأمير، حيث يعلمنا أنّه لا يمكن أن يدرك خصاله، إلاّ من تميّز بالفطنة والذكاء وذلك بقوله "أَثْأَمّلْ فِيهَا يَا فْطِينْ خَمَمْ".

ويواصل الشّاعر في ضوء القول ليؤكّد ما انطوى عليه الموقف، وسياق التجربة الرّوحيّة من رمزية، حين يكون بصدد ذكر نسبه الشريف بقوله: "وَلْدْ القَيْطَنَهْ..." حيث يمثّل هذا

القول أحد الأسباب الرّمزية في إنشاء هذه الشّخصية، والتيّ جعلها "المادّة القويّة التيّ وحّدت الأمّة وقبائلها ومناطقها، الوقت الذي كان فيه التشتّت والضّياع ضاربين جذورهما في الكيان الوطنيّ الواحد" [3].

ويذكر الشّاعر سببا آخر في إنشاء الشّخصية الرّمزية **للأمير عبد القادر**، وذلك حين يقول: "أَعْطَاهُ السَّرْ وْطَابْعَهْ مْزَمَّمْ" فهنا يحاول إبراز شخصية رمزية أخرى هي رمزية الأب محي الدّين التي كانت لتجربته الدّنيوية دور هامّ. حيث انتقلت هذه التجربة من الأب الذي يرمز إلى المنطق والعقلانية إلى الابن الذي ورث كلّ شيء عن أبيه، وهو ما تجلّى في قوله " أَعْطَاهُ السَّرْ" هذا السّر هو التجربة الدّينية الرّوحية وما تحمله من معاني ورموز، أضف إلى ذلك التّجربة السّياسية، وما قدّمه الأب ضدّ الحكم التركي، فهو بهذا يجمع بين الأصل الذي ينتسب إليه والتّجربة التي ورثها عن أبيه محي الدّين، والقوّة الإلهية التي أعطته العلم والحكمة والجاه، وهي صفات قلما تتوفّر في رجل واحد. كلّ هذه المعطيات أدّت بالشّاعر إلى صياغة القصيدة، معتمدا في ذلك على العقيدة الإسلامية، فهو يربط بين العامل الرّوحيّ ودوافع المقاومة، فالمجتمع لا يمكنه بأيّ حال من الأحوال أن يلتفّ حول شخصية مهما كانت شجاعتها وبسالتها إلاّ إذا كانت هذه الخّصال ممزوجة بعامليّ الورع والتّقوى.

ونجد الشّاعر ينقل لنا صورة رمزية **للأمير عبد القادر** وتتمثّل في العلو الشّخصيّ أو بمعنى آخر القيمة الإنسانية التي اكتسبها الأمير والمكانة التي اكتسبها، ليسقي قلوب الشّعب البسيط بل تعدّت إلى قلوب شخصيات مهمّة في المجتمع، كالقضاة والعلماء... والدّين وضعوا فيه الثّقة ليقف في وجه الكافرين.

وقد حاول الشّاعر الشّعبيّ بن رامي مسعود تأكيد ما قدّمه بن عبد الله، وذلك بذكره أصل **الأمير عبد القادر** بن محيّ الدّين حين قال:

اَلْـــــأمِيرْ عَبْـــــدْ القَـــــادَرْ شْـــــجِيعْ وْلِيـــــدْ أْصُـــــولْ
وْلِيـــــدْ البَادْيَـــــة وَالصَّـــــحْرَاء أَهْـــــلْ الكْـــــرَمْ كِـــــي مُخْلِصِـــــينْ
مَزْيُـــــودْ فِـــــي مْعَسْـــــكَرْ بِيـــــتْ الشِّـــــعْرْ وَالمَـــــرْ حُـــــولْ
القَيْطَنَـــــةْ قَرْيْتُـــــو أَهْـــــلْ النِّيـــــفْ وَرْجَالْهَـــــا مُصْـــــلِحِينْ
وَلْـــــدْ مَحْـــــي الـــــدِّينْ مَـــــنْ ذُرِيَـــــةْ الزَّهْـــــرَة بَنْـــــتْ الرّسُـــــولْ
أَصْـــــلِي وْأَصْـــــلَكْ وَاحَـــــدْ خَـــــارْجِينْ مَـــــنْ عُنْصُـــــرْ زِيـــــنْ [4]

يحاول الشّاعر في هذه الأبيات، أن يهيب بالصور العينية المحسوسة التي تتداخل فيها صورة الأمير الزّعيم، وطبيعته المتمثّلة في البادية والصحراء، في بناء حالي، أمّا الخطاب الرّمزيّ ودلالته

في كلمة "الأمير" يمثّل ثقافة شعبية منتقاة من واقع اجتماعي سبق أن جاء عن طريق قصّة أسطورية سبقت مبايعته، والتي تأثّر بها شيوخ وعلماء المنطقة، والتي يرويها لنا كمال فيلالي بقوله:

"في سنة 1828 م، رحل الشّاب **عبد القادر** بن محي الدّين، أمير العرب إلى بغداد مع أبيه رائد القبة المذهبة لسيدي عبد القادر الجيلاني، فدخل عليه وليّ صالح في صفة زنجي، وبيده ثلاث برتقالات سائلا محي الدّين: أين أمير الغرب؟ هاته البرتقالات من نصيبه. ليس من بيننا أمير" يجيب محي الدّين، وينسحب الزنجي معلنا للزائرين أن الحكم التركيّ على وشك الانتهاء في الجزائر، وأن الحاج عبد القادر بن محي الدّين، سيكون أميرا على عرب الغرب".[5]

ويقصد الكاتب إدوارد دونوقو بـ عرب الغرب، ليس الجهة التي تغرب منها الشمس بل، دول شمال أفريقيا: المغرب، الجزائر، تونس.

وكانت مقاطعة الغرب في سنة 1828 عبارة عن ساحة حربية، أبطالها القبائل والأسر الحاكمة فيما بينهم، "ولذلك اجتمع الرؤساء والمرابطون بمكان يطلق عليه:"أَرْسِيبَة" في سهول أغريس، وهذا لانتقاء قائد بإمكانه إحلال السلم وقيادة الجميع.." [6].

"في الليل ظهر مولاي عبد القادر الجيلاني لسيد العرش، وهو مرابط ذو القرن، وكلمه، فإذا بملك ينصب أعين سيد العرش، فاندهش لهذه الظاهرة الخارقة للعادة، وسأل العجوز (سيد االعرش) سيدي عبد القادر الجيلاني: لمن هذا الملك؟ فأجابه سلطان الصّالحين: للحاج عبد القادر ولد محي الدين.

وبعد برهة ركب سيد العرش حصانه وبصحبته ثلاثمائة فارس، ليطلب من سيدي محي الدّين ابنه الثاني، بعد أن قصّ عليه رؤياه، وكلّمه مولاي **عبد القادر**، وكان محي الدّين قد رأى نفس الرؤيا ومولاي عبد القادر يسأله: لمن هذا الملك؟ لك أو لابنك عبد القادر، إن قبلت سيموت ابنك، وإن رفضت تموت أنت قريبا"[7].

فعيّن **الأمير عبد القادر** أميرا في اليوم نفسه وهي إرادة الولي الصالح عبد القادر الجيلاني، وبايعه كل العرب على **أنه** مختار العناية الإلهية، فأصبح عبد القادر الجيلاني، وبايعه كل العرب على أنّه مختار العناية الإلهية، فأصبحت هذه القصة أحد العوامل التي كان لها الدور في بروز الشّخصية الرّمزية للأمير عبد القادر، والتعلّق الحاصل بينه وبين الشّعب، الذي جاء لينقذه ممّا هو فيه من معاناة سببها الاستعمار الفرنسي.

إنّ بناء صورة الأمير عبد القادر الرّمزية في المخيال الشّعبيّ الجزائريّ مردّه العلاقة الموجودة أوّلا بالولي الصالح عبد القادر الجيلاني، هذا الولي الصالح يعتبر أيضا رمزا في الذّاكرة الشّعبية خاصّة في الغرب الجزائري، حيث يقصده الفقراء بالدعاء قصد قضاء حاجاتهم،

وهو ما نلاحظه في قولهم مثلا " تَعْطِينِي عْلَى وْجَهْ سِيدِي عَبْدْ القَادَر" أو على خَاطَرْ سيدي عبد القادر"، كما نجد بعض البؤساء يستنجدون به، إذ عثر على شخص في الطريق يدعو الناس من حواليه " يَا سِيدِي عَبْدْ القَادَر النْعَبْنَ فِي العْذَابْ".

هذه العلاقة الموجودة بين الشعب والوليّ الصالح عبد القادر الجيلاني تنقّلت إلى علاقة بين الشعب **والأمير عبد القادر** بما أنّ الوليّ الصالح هو من أقرّ بأن يكون أميرا عليهم، فأصبح **الأمير عبد القادر** خليفة مولاي عبد القادر في المنظور الشّعبيّ، لأنّه جاء من رغبة إلهية قصد رفع الغبن عن البؤساء وتحريرهم من الظّلم المتفشّي عليهم.

فكان لاسم "عبد القادر" لوقع النّفسي على المجتمع الجزائريّ، حيث أصبح الأولياء يسمّون أبناءهم بهذا الاسم (عبد القادر) إعجابا وتأثّرا به وبالطريقة التي حكم بها في الدفاع عن حقوقهم، فكلّما ذكر الاسم، إلاّ وأعاد إلى الواجهة ذكريات والأحداث التي مضت عن الأمير ومواقفه، ومن هنا كان الاسم ذكرى جميلة، وإن الأمير في نظر الفرد الجزائري رمز البطولة وشخصية بارزة، وإن سئل عن رغبته في تسمية ابنه باسم عبد القادر يقول: أحببت أن يحمل ولدي هذا الاسم العظيم ليجئ بهذه الطّلعة لشخصية بارزة.

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يضع لنفسه مادّة قويّة "ومصدرا لقوة أفراد الأمّة وقت كان الخوف والرعب قد سكنا نفوسهم، كما كان أيضا رمز الأمير عبد القادر، المشعل المنير في سماء هذه الأمّة[8].

كلّ هذه الصفات والمواقف الشهمة، رسمها الشّعراء الشّعبيون محطّة محطّة، فتغنوا بها ومجّدوها، فاستعملوا مراحل حياته، وقدّموها للشّعب على شكل قصص يقتدي بها.

وقد عرض بن رامي مسعود بعض الأحداث التي شهدت مبايعته، وعبّر عن تأثير الصّلة النّبوية ومدى تأثّر الأمير عبد القادر بها، وراح يصوّر مراسيمها ويلوّح من خلالها على أنها طبق الأصل للسّنة النّبويّة.

نَــدَى لْنَاسَــهْ تَحْــتْ الشَــجْرَة، كِيمَــا فْعَــلْ الرَّسُــولْ
أَقْتَــــدَى بِسُــــنَةْ نَبِينَــــا وَأْصْــــحَابُو المُفَضَــــلِين
بَــايْعُوهْ تَحْــتْ الشَّــجْرَة جَــايِينْ لْعَنْــدَهْ بَالوْصُــولْ
اخْتَــارُوهْ لِــيهُمْ أَمِــير عَرْفُــوهْ مُــؤْمِنْ وزِيــنْ
أَبْــدَا يْوَحَــدْ الصْــفُوفْ أَهْــلْ السْــوَاحَلْ وَالتْلُــولْ
وَبْعَــثْ لأَهْــلْ الصْــحْرَاء وَالأَبْطَــالْ والمُطِعِــينْ

بْعَـــــثْ لَلْقَبَائـــــلْ وَعْـــــزَمْ لِـــــيهُمْ بَـــــالرْحُولْ
أَتْلَقَـــــاهْ المُقْرَانِـــــي وْعَوْنُـــــوا عْلَـــــى المُفْسِـــــدِينْ (9)

فالشّاعر يصوّر لنا من خلال هذه الأبيات الخطوات المعتمدة من طرف الأمير عبد القادر في تشكيل البُنى التحتية للجيش التي هي المصدر الأصلي للدّفاع عن الأمة، فكان التأثر الدّينيّ واضحا من خلال عملية الهيكلة أو البناء، فالتوحيد والتّعاون أمر ضروري للقيام بهدف واحد هو الدّفاع عن الوطن، فالشّاعر يحاول أن يبني القصيدة بالاعتماد على الرمز وهو اعتراف منه بأنّ "الرّمز يقوم بدور أكثر ثراء وقوة في تجسيد مقاصد الذّات المعبرة، وفي توسيع الفضاءات المعبرة عنها، وهذا مرده إلى القوة الرّمز الذّاتية على الإيحاء المتنامي والتصوير المتجدد..."(10).

يحاول الشّاعر من هذا الاعتماد على الرّموز الدّلالية، أن يبين أنّ الانتصار على الأعداء، هو في الحقيقة نصرة للدّين، والشّريعة الإسلامية، فالأمير ليس قائدا ناصرا لنظائره، بل هو التّوحيد لهازم الشرك.

ومن بين الرّموز الدّلالية، قوله كلمة "مؤمن" وهي دلالة على الإيمان باللّه وحده وبرسوله ﷺ، وتدلّ على أنّه مؤمن بما هو مقبل عليه، ومصدق بأن النّهاية ستكون حتما محتوما، أمّا الدّلالة الرّمزية لكلمة "رْزِينْ" فهي إيحاء على قوة الشّخصيَّة، والأسباب التي أورثته التّجربة الدّنيوية، وعدم الانزلال وراء الشّهوات، كذلك هي إيحاء على قوة الأمر الذي يصدره، والذي لا يأتي عفويا، بل هو قرار حكيم يحكمه العقل والتّشاور في الأمور وإعطائها الحّق في القرار المناسب، دون أن يمسّ كرامة أحد أو يأخذ حقّ أحد آخر.

ولقد تغنّى الشّاعر الشّعبيّ أيضا ببعض السّمات التي ميزت الأمير، والتي ارتبطت به طوال حياته وبعد وفاته، وهي أدبيته التيّ اكتسبها من خلال النّظم والرّسائل والكتب والتي سجلتها له الذّاكرة الشّعبيّة:

أَدِيـــــبْ في صَـــــفْ الشُّـــــجْعَانْ شَـــــاعَرْ يَمْـــــدَحْ وَيْقُـــــولْ
أَكْـــــرِيمْ وْطَيَّـــــبْ وَقَلْبَـــــهْ عَلَـــــى الْفَقِـــــيرْ حْـــــنِينْ(11)

ما يقوي دلالة الرّمز في هذا البيت هو إخراج الشّاعر، **الأمير عبد القادر** من التّاريخ وألبسه ثوبا مبالغا فيه، حيث جعله الفارس الأعلى والنموذج المثاليّ والشّاعر الذّي لا يرقى أحد إلى منزلته.

إنّ رمز الأمير يعد شخصية فريدة من نوعها، فهو يمتلك مميزات وخصائص ما يجعله جديرا وأهلا لذلك، ويضاف إلى ذلك أنه مدعوم بقوى خفية خارقة تمده بالقوة، هذه القوة في

المنظور الشّعبيّ هي بركة مولاي عبد القادر الجيلاني، وهي أيضا قوة مستمدة من إيمانه وما تعلمه عن الصبر وقت الشدائد.

فالشّاعر بهذا البناء الشّعريّ يحاول أن يبني لشخصية الأمير عبد القادر، أسطورة في المخيّال الشّعبيّ، حيث "يمكن القول بأن البنية الشّعرية للرّمز أو البنية الرّمزية للشّعر، ليست بمعزل عن الأساطير والمجاز والتصوير الاستعماري والعلامات الأستطيقيّة والوعي التخيّيليّ والتّأمليّ بشكل عام.[12]

والقصد من هذا القول هو أن الشّاعر اعتمد التصوير الأسطوريّ في اتباع الأحداث التاريخية لشخصية الأمير عبد القادر، وموافقة الدّينية حتى جعله أسطورة في الفكر الشّعبيّ، يضرب بها المثل في السّياسة والشّجاعة والثّقافة...

1.**البّعد الثّوريّ:** كان لرمز البطولة الحصة الكبرى في المواضيع التي تناولها الشّعراء الشّعبيون، خاصة المقاومة الشّعبيّة التي قادها **الأمير عبد القادر**، فهو الرّمز الذي بنى لنفسه مكانا في الذّاكرة الشّعبيّة، وهو باق لا محالة إلى يومنا هذا، نراه من خلال تسمية الأبناء المتعددة بين أفراد الشّعب باسم "عبد القادر" وهو دليل على التمسك والحب والتقدير في تأسيس الدولة الجزائرية، وهو ما يجعل الشّعب يتمنى بقاءه إلى يومنا هذا، كما يتمنى أن تأتي هذه التسمية بالرجل الذي يحمل خصاله، ويسير الدولة على منواله، يقول الشّاعر المجاهد "الحاج محمد بن يوسف" في قصيدته "يا بلادي يا بلادي" والتي نظّمها عام 1956م:

يـــــاَ وَطْـــــنْ الْبَطَـــــلْ الْمَـــــاهُرْ فَـــــارَسْ الشْـــــنَا عَبْـــــدُ الْقَـــــادَرْ

أَعْلِيـــكْ يَـــا الجْزَائِـــرْ خَلـــيِّ شْـــنَا يْتْعَـــادْ

رَمْـــــزْ الْبُطْلَـــــة سَـــــافَرْ وْبْقَـــــا عْلَـــــى لَبْعَـــــادْ

مِـــنَ الْـــوْطَنْ مْهَـــاجَرْ وْفَرْكَـــتْ الْميعَـــادْ

الـــــرُّوحْ بَـــــاقِي حَاضَـــــرْ وَالْجَسَـــــدْ فِي لَلْحَـــــادْ [13]

كان الشّاعر يوحي في استعمال الاسم "عَبْدْ القَادَرْ" باعتبار الاسم في حد ذاته عنوانا للفرد، لا يدّل على الشّخص في حدّ ذاته، بل إشارة مضيئة تكشف عن المخبوء داخل أعماق ذلك الاسم، فهو رمز القوة، والمشعل المنير، ورمز الحسن والنّجاح....

كما رمز إليه كذلك بالبطل في قوله "يَا وْطَنْ البَطَلْ" و"رَمْزْ البُطْلَة".

في التّعبير العامّي، هو إيحاء على قوة البطل، وأكبريته التي كان هو صاحبها بامتياز، حين كان يواجه العدوّ، "فالبطل هو الصّورة التيّ تريدها الذّات من حيث التكامل، إنه تجسّد أحلام، وتجسيد التطلعات إلى الخلاص، وإزالة ما لا نودّه، وإسقاط ما لا نوده وبكلمة أخرى، فإن مادة البطل موجودة في نفوسنا ما يختلف مع البطل... البطل قيمة وصورة كاملة يمتص المشاعر المثالية التي عرفتها الإنسانية، وتتشكل في الخبرات، إنه تعبيرات عن الأمل القادم، وعن إمكانية الخلاص، وهذا ما ينبئ في الآن عينه عن واقع جارح وعن قواهر نظيرة سلطة قامعة أو لقمة غير سائغة، وبذلك يأتي ذلك البطل تغطيته لتلك الجارحات للواقع واللقمة والأمن وتوكيد الذّات والمحن"

أماّ الدلالة التي يرمي إليها الشّاعر من خلال استعماله كلمة البطل، فهي النّجاح والأمن، والملاذ والاطمئنان فبمجرد فقدان البطل، فقد النّجاح وذهب الأمن والاطمئنان.

أما العبارة الخطابية المتمثلة في (البَطَلْ المَاهَرْ) فهي صورة رمزية تدل على الكمال، أي كمال الذّات، فمهارته تشمل كل الميادين، فالأمير ماهر في التخطيط، وماهر في استعمال السلاح، وماهر في التعامل واتخاذ القرارات....، كل هذه الصور تتكامل فيما بينها لتعطي الصور الكاملة لشخصية الأمير في المنظور الشّعبيّ المعريفّ.

قد أصبح الأمير عبد القادر الموضوع الأساسي في الشّعر الشّعبيّ الثّوريّ، فشخصيته ارتبطت بالشّعر ارتباطا كليا، كما نجد الشّاعر يبالغ في بعض الأحيان في الحديث عنه، حتى جعله صانع كل شيء، أي صانع الدّولة الجزائرية.

ويضعه غالبا في مرتبة عالية جدا، حيث لا يستطيع بلوغ هذه المرتبة شخص آخر، فالشّعب يرى فيه المجد القادر، يقول الشّاعر "بوحميدي العربي" في قصيدته "ماذا بنا صار":

عَبْـــــدْ الْقَـــــادَرْ مِيرْنـــــاَ مَجْـــــدْ الْحَيَـــــاةْ
جَـــــيْشْ التَحْرِيـــــرْ نَظْمُـــــوا وَتَحَرَّرْنـــــاَ[14]

يمثل الشّاعر من خلال هذه البيت سلطة الأمير التي أعطى المجد في الحياة، وأعطى القوّة للفرد من أجل النّهوض وفرض نفسه على العدو الغاشم، ويقصد بقوله "مِيرْنَا" أي قائدنا الذي يمكن الإتكال عليه وإعطاؤه ظهورنا لما يحمله من دهاء، إضافة إلى كونه مؤمنا باللّه، تكفيه ليكون أهل للثقة.

إن الهدف العام الذي يسعى إليه الشّاعر، هو التّعبير عن شعوره تجاه الأمير، كونه فردا شعبيا جزائريا قد تعلق به كباقي أفراد المجتمع، ويحمل في صدره عاطفة الفخر الاعتزاز، وهو يحاول من خلال ذلك أن يشكره بطريقته الخاصة على ما أظهره من قوة وإصرار على

الانتصار، حيث يرى أنه لا مثيل له ولا شيء يضاهي شخصيته. "ولا شك في أن هذا الشعور الوطني، والإشادة ببطولة الأمير، كان تعبيرا حيًّا عن أمالي وأماني الطبقات الشّعبيّة، التي كانت تتوق إلى تحقيق عدالة اجتماعية تحقق لها العيش والأمن والاستقرار".

فثورة الأمير عبد القادر انتشرت واستمرت لسببين: أولهما قوة الأمير عبد القادر في عملية القيادة والتسيير، وثانيهما، نزاهته وإخلاصه، فهو يمثل المثل الأعلى لسلوك الآخرين، والصرامة في تطبيق القوانين، بطريقة عادلة ونزيهة.

يقول الشّاعر "ابن الصحراء":

بْـــــــن مَحْـــــــيِ الـــــــدِّينْ رَايَـــسْ ذَاكْ الجِـــيشْ الـــزِّينْ
زَاهَّـــــــوْا الـــــــدَّارِينْ وِأَعْطَـــــاهُمْ رَبِّـــــي العُلْيَـــــا
فَـــــــارَسْ الأَعْـــــــرَابْ بَالسِّـــــيفْ يْقَلَـــــبْ تَقْـــــلاَبْ
قَـــــــاطَعْ لَرْقَـــــــابْ الْقَـــــوْمْ النَصْـــــرَ نِيَـــــا
عَبْـــــــدْ القَـــــــادَرْ جَـــابْ مْعَـــاهْ عْـــلاَمْ الخِـــيرْ
شَـــــــبَابْ صْـــــــغِيرْ يْشَـــــالِي فِـــــي المَشَـــــالْيَا
طُـــــــوعْ رْيَـــــــاسْ مَـــنْ مْعَسْـــكَرْ لَمْدِينَـــةْ فَـــاسْ
أَشْـــــــبَايَلْ أَجنَـــــــاسْ كُـــلْ يُـــومْ تْجِيـــهْ هَـــدَايَا
فِـــــــي بُـــــــوقَزُولْ مْـــعَ الكَـــافَرْ رَاسْ الغُـــولْ
تَرْكُـــــــوا مَـــــــذْلُولْ مُعْظَـــمْ هَـــذِهِ القَصِـــيَا[15]

في هذا البناء المعرفي الموغل في التجديد، عبر من خلاله الشاعر "ابن الصحراء" بعدّة صور حسية عن رمز الأمير عبد القادر، محاولة منه لإظهار السّمعة الشّعبيّة التي يتمتع بها والنكاة التي أضحت راسخة في المخيّال الشّعبيّ، فذكر الأب قبل ابن في أول القصيدة محاولة من الشّاعر إلى ربط تاريخ الأب محي الدين بالابن عبد القادر وما يقوم به سواء اجتماعيّا أو سياسيّا أو ثقافيّا، فذكر الأب قبل الابن - باعتبار ما كان وما سيكون - كون الأب رمزا يعني الاستقلال، لما يرمز إلى العلم الخارجي والعادات والتقاليد والاتزان والتربية، ويرمز أيضا إلى الشّهامة وروح المبادرة، فالأب محي الدّين، تلويح رمزيّ إلى الرّوح الكليّ، فهو ابن محي الدّين، من حيث الصورة، وأبوه من حيث المعنى، وعلى صعيد فكرة الميلاد الأبديّ، نفهم من قوله "الأب" الوجود الأبديّ اللانهائي الكامن في الوجود الإلهي.[16]

وصور الشّاعر "ابن الصحراء" الأمير عبد القادر، بتصوير ما يقال عنه أنه تصوير خياليّ بديع تليق بهذا الرّمز الأسطوريّ كقوله "فارس الأعراب" وهو إيحاء إلى الفروسية العربيّة الأصيلة التي ورثها عن أبيه محي الدّين، فالفروسيّة هنا لا تقتصر على براعة الوثبة على ظهر الفرس، ولا هي الشّجاعة الخرقاء المتطورة، بل هي أخلاق كريمة، ومل أعلى وهو ما رأيناه في شخصية الأمير عبد القادر.

ولا شك أن الأمير، قد شرب من الفروسية الأصلية كؤوسا، كيف لا وهي صفات آبائه وأجداده من العرب الفرسان، وقد ولدت الفروسية العربية في نفس الأمير رزحت جماعية نادرة، ورسخت في نفسه شعورا عميقا بالجماعة.

إن التكرار الشّعري لحضور الأمير عبد القادر في ثنايا القصائد، ليس تكرارا سلبيا جافا جامدا، فمن حيث التوليد الدّلاليّ الرّمزيّ، هو انعكاس حي وصادق لاستمرار الجروح والآلام، إن لم نقل أيضا استمرار أسباب المقاومة، التي فجرها وقادها ذات يوم، من تاريخ هذا الشّعب ومن تاريخ مجتمع الأمير عبد القادر ضد العدو، وما يرمز إليه من مظاهر الطغيان والاستبداد والتخلف والجهل والأمية والجوع والمرض والمعاناة وكأن أشياء من عدو الأمس لازالت حاضرة في هذا المجتمع، وعند هذا الشّعب الذي لا يزال يعاني ويلات الماضي، لذلك كان لابد أن تبقى البطولة التي قادها الأمير عبد القادر في المخيال الشّعبيّ.

الهوامش:

(1) أ.د محمد سعيدي، تمثلات الفكر الشعبي لشخصية الأمير عبد القادر، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، العدد 11، الجزائر، 2006، ص 37.

(2) جلول يلس، أمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ت)، ص 48.

(3) أ.د، محمد سعيدي، المراجع السابقة، ص 138.

(4) بن رامي مسعود، الكنز المغمور في الشعر الملحون، قصر الكتاب، البليدة، سنة 1999، ص 23.

(5) إدوارد دونوقو، الأخوان، دراسة أنثرولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق، د. كمال فيلالي، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، سنة 2003، ص 30، 31.

(6) المرجع نفسه، ص 31.

(7) المرجع نفسه، ص 31.

(8) د.أ. محمد سعيدي، المرجع السابق، ص 138.

(9) بن رامي مسعود، المصدر السابق، ص 23.

(10) نباحي ملاح، أليات الخطاب النقدي في مقاربة القصة الجزائرية، دراسة في قراءة بالقراءة، دار الغرب للطبعة والنشر، الجزائر، سنة 2002، ص88.

(11) بن رامي مسعود، المرجع السابق ص 23.

(12) د. عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلسي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، سنة 1978، ص110.

(13) أحمد حمدي، الشعر الشعبي شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، (د.ت)، ص97.

(14) المرجع نفسه ص97

(15) المرجع نفسه ص101

(16) علي زيغور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية المستعلى والأكبري في التراث والتحليل النفسي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1982، ص24.

قائمة المصادر والمراجع:

I. الدواوين:

1.أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، (د.ت).

2.جلول يلس، وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون الشكرة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).

3.مسعود بن رامي، الكنز المغمور في العشر الملحون، قصر الكتاب، البليدة، سنة 1999.

II. المراجع العربية:

4. د. عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، سنة 1978م.

5. علي زيغور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية المستعلي والأكبري في الترتث، والتحليل النفسي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى سنة 1982م.

6. نباحي ملاح، آيات الخطاب النقدي في مقاربة القصة الجزائرية دراسة في قراءة القراءة، دار العرب للطباعة والنشر، الجزائر، سنة 2002.

III. المراجع المترجمة:

7. إدوارد دونوقو، الأخوان، دراسة إثنولوجية حولة الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة وتحقيق الدكتور كمال فيلاني، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، سنة 2003.